

(الموازنات الأدبية في الأندلس)

بواعثها وسماتها

د . حميدة البلداوي - العراق

مهاده تعريفي :

الموازنة لغة : المقابلة والمعادلة، يقال : وازنه أي قابله وحاذاه وعادله في الميزان (1). وبهذا المعنى وردت اللفظة في القرآن الكريم، ولقد ترددت (ست عشرة مرة) ما بين (وَزَنَ، وَزَنَ، موزون، ميزان...) ومنها قوله تعالى : « وَأَقِيمُوا وَزْنَ بِالْقِسْطِ » (الرحمن: 29).

أما مفهومها بلاغيا : فهي جنس من المقابلة التي يتم بها ترتيب الكلام على مايجب، فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا وآخره ما يليق به آخرًا ومنه قول أبي الطيب المتنبي:

نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالٍ (2)

فقد وازن الشاعر قوله (في حياتك) بقوله (في منامك) وكذلك صنع بين (حبيب وخيال) (3).

(1) لسان العرب، ابن منظور مادة (وزن).

(2) ديوان المتنبي 171/3 شرح عبد الرحمن البرقوقي ط 1938.

(3) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني 20/2 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط . دار الجبل بيروت 1972.

ويحدّها (ابن الأثير ت 1239/637) بأن « تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، وأن يكون صدر البيت الشعري وعجزه متساوي لألفاظ وزنا»؛(4)

ومنها قول (ابن زيدون) :

بِالْأَمْسِ كُنَّا وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا وَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا (5)

وهي تعود في أصولها إلى حالة ذهنية لدى الإنسان لمعرفة الفروق في التشابه والتباين، لتشكل ظاهرة إنسانية فحيثما « وجد تشابه واضح أو تناقض واضح، رأينا العقل يسعى إلى الربط والموازنة والتفسير »(6). ولقد تحقّق حضور هذه الظاهرة في التراث النقدي في أقدم عصوره إذ نجده على بساطة تقديمه. في أول مسرحية لاهية يونانية فتحت باب النقد ووضعت كبار المسرحيين والشعراء أمام محكّ المقابلة والترجيح في كفتيّ الميزان وهي مسرحية (الضفادع) لأرستوفانس . وفي تراثنا النقدي العربي تبرز مفاضلة (أم جندب) بين شعرامرئ القيس وعلقة الفحل في وصف الفرس شاهدا بيّنا على عراقية هذا النشاط . رافقت الموازنة ظهور الشعر فالشاعر هو أول من يقابل ويفاضل بين ألفاظه ومعانيه وأسلوب نظمه. نذكر من أشهر شعراء العربية الذين وقفوا للمفاضلة بين الشعراء والحكم لهم أو عليهم (النابغة الذبياني) في سوق عكاظ. كما أن من أوائل النقاد الذين جعلوا الموازنة منهجا نقديا وطبقه في دراسته : (الأمدي) في موازنته بين الطائيين.

وهكذا كان أمام أدباء الأندلس ونقادهم تراث أصيل في هذا الجانب فتح أمامهم الطريق، فكان أن سلكوه، ونحن وإن لم يصلنا كتاب مستقل يعتمد الموازنة منهجا - كما وجدنا عند الأمدي - فإن شواهد هذا الباب النقدي منبثة في كتب التراجم

(4) المثل السائر، ابن الأثير 377/1 تحقيق د. الحوفي وطبّانه. القاهرة 1975 .

(5) ديوان ابن زيدون : 143 تحقيق علي عبد العظيم ط القاهرة 1957 .

(6) (عمر ابن أبي ربيعة ونزار قبّاني) د. ماهر حسن فهمي : 5. ط . مصر 1971.

والمجاميع والاختيارات الأندلسية، ومن هنا جاء تتبعنا لهذا الموضوع وإفراده بهذه الدراسة التي ستجيب عن جملة تساؤلات منها :

ما بواعث هذا النشاط النقدي ؟

ما اتجاهاته ؟ ماهي ميادينه وأخص سماته ؟

أولاً : ((بواعث الموازنات في الأندلس))

من الحوافز التي كانت تدعو إلى إقامة المفاضلات بين الشعراء والأدباء في الأندلس :

1- التنافس بين البيئة الأندلسية والبيئة الشرقية ومحاولة مجاراة شعراء المشرق والتفوق عليهم، وهذه الحقيقة هي التي يشير إليها ابن بسام ت (1147/542) في مقدمة (الذخيرة) شاكياً أهل الأندلس بقوله : «وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان، وخص أهل المشرق بالإحسان !» (7) .

ومن شواهد ما ورد في كتب التراجم والمختارات الأندلسية. ومنها قول (الفتح بن خاقان) في نونية (ابن زيدون) « وهي قصيدة ضربت في الإبداع بسهم، وطلعت في كل خاطر ووهم، ونزعت منزعا يقصر عنه حبيب وابن الجهم » (8) .

كذلك تعليق (المقري) وهو يترجم للسان الدين بن الخطيب ويثني على اقتداره في نظم الشعر ارتجالاً، وذلك في قصيدة مديح كانت عنده «أبلغ مما وقع لأبي تمام في سينيته... لأن أبا تمام ارتجل بيتين فقط، ولسان الدين ارتجل تسعة عشر بيتاً مع ما هو الحال عليه من الخروج عن الوطن وذهاب الجاه والمال، فأين الحال من الحال؟!» (9)

(7) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام الشنتريني 12/1/1 تحقيق د. إحسان عباس. ط. بيروت 1979 ص 5 .

(8) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري : 551/4 تحقيق د. إحسان عباس. ط. دار صادر 1968 .

(9) م . ن : 96/5 . وينظر أيضاً 173/3 و 178 .

وقد تطلق على أكثر من شخصية أدبية من غير تحديد لخصائصه الفنية، أو تعليل هذه الأحكام منطقياً. من هذا تعليق (ابن بسام) على أبيات للخليفة المستعين (سليمان بن الحكم) أولها :

عَجَبَا يَهَابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِنَانِي وَأَهَابُ لَحْظُ فَوَاتِرِ الْأَجْفَانِ
بأنها « قد شعشت بها الكؤوس وتهادتها الأنفاس والنفوس ». مقابلاً إياها بأبيات الخليفة (هارون الرشيد) وأولها :

مَلَكُ الثَّلَاثِ الْإِنْسَاتُ عِنَانِي وَحَلَّلَنِي مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ

فهو بعد أن وسم الأولى بأثرها البليغ في النفوس - كما قدّمنا - ترك الحكم لفطنة القارئ كي يتيقّن من كلامه وفي هذا يقول : « وقد أثبت القطعتين معاً ليرى الفرق ويعرف الحق » (14) وقد يحكم لشاعر ببيت، كما حكم (أبو جعفر بن سعيد) للشاعر (أبي العباس أحمد بن سيد) المعروف بالّص في قوله :

وَمَا أَفْنَى السُّؤَالَ لَكُمْ نَوَالًا وَلَكِنْ جُودُكُمْ أَفْنَى السُّؤَالَا
بقوله : والله لو لم يكن لك غير هذا البيت لكنت به أشعر أهل الأندلس (15) .

(2) الاتجاه الديني : ونجد أحلى شواهد في المفاضلة بين الشعر والنثر، إذ فضل النثر، كما عند (الكلاعي 1155/550 هـ) لأن الشعر - برأيه - « داع لسوء الأدب وفساد المنقلب، ولأنه لضيقه وصعوبة طريقه يحمل الشاعر على الغلو في الدين حتى يؤول إلى فساد اليقين ويحمله على الكذب، والكذب ليس من شيم المؤمنين » (16) .

(14) الذخيرة 47/1 .

(15) نفح الطيب 201/4 .

(16) إحكام صنعة الكلام، محمد بن عبد الغفور الكلاعي : 44، 46 تحقيق د. محمد رضوان الداية.

ط . عالم الكتب 1985 .

وهو يستشهد بقول الأصمعي « الشعر نكد بابه الشرّ، فإذا دخل في الخير ضعف »، كما أن الوزن دأب إلى الترّنم والترنّم من باب الغناء، وقد قال بعضهم « الغناء رقية الزنا » (17). وأما الكتابة فبعيدة عن هذا كله.

3- الاتجاه اللغوي :

وبهذا المنحى تتبّعوا سلامة اللغة ودقّة توظيفها وفاضلوا بين الجيّد والردّيء من قولهم . وقد ساهم الأمراء وأصحاب السلطة في هذا النقد، أنشد الشاعر أبو العباس أحمد بن سيد (في العصر الموحي) الأمير (عبد المؤمن بن علي) بجبل الفتح :

غَمَضَ عَنِ الشَّمْسِ وَاسْتَقْصَرَ مَدَى زُحُلٍ وانظرْ إلى الجَبَلِ الرَّاسِي عَلى جَبَلٍ
فقال له : أنت شاعر هذه الجزيرة لولا أنك بدأتنا بغمض وزحل والجبل (18)

ومن صورته أيضا ما جاء في مفاضلة (الشقندي ت 1234/632) بين شعراء الأندلس وشعراء المغرب، وتناوله أشعر شعراء المغرب (أبا العباس الجراوي) بالنقد وبالتحليل في قوله مادحا أحد أمراء بلاده :

إذا كانَ أملاكُ الزّمانِ أراقِمًا فإنّك فيهم - دائِمَ الدَّهرِ - تُعبانُ
فمن رأيه أن لفظة (ثعبان) لم تكن موفقة في التعبير الشعري، بل جاءت بموضع قبيح، أما قوله (دائم الدهر) فما أضعفها موقعا. (19)

4- الاتجاه الفني :

وقد كثر شواهد لمقاييسه المتعددة أولاً، ولعناية أهل الأندلس بالصورة واعتمادهم المنظور الجمالي - غالبا - في اختياراتهم الشعرية، من شواهد هذا الاتجاه تلك الموازنة التحليلية التي أجراها (ابن بسام) بين نصّين : الأول لابن برد الأصغر

(17) م . ن .

(18) نفح الطيب : 4 / 200.

(19) م.ن: 3 / 210.

(عصر الطوائف ق 11/5 والثاني للشاعر المشرقي (ابن المعتز 908/296) في مشهد

بعينه وهو (ساقى الخمر)، يقول ابن برد :

أَعْنَبِرْ فِي فَمِهِ فُتْنًا أَم صَارِمٌ فِي لَحْظِهِ أَصْلَتَا
يَا شَارِبًا أَلْتَمَمَنِي شَارِبَا قَدْ هَمَّ فِيهِ الْأَسْ أَنْ يَنْبُتَا
انْظُرْ إِلَى الذَّاهِبِ مِنْ لَيْلِنَا وَامزِجْ بِمَاءِ الذَّهَبِ الْمُنْبِتَا
ويقول ابن المعتز :

قَدْ صَادَ قَلْبِي قَمْرُ يَسْخَرُ مِنْهُ النَّظَرُ
بِوَجْنَةٍ كَأَنَّمَا يُقَدِّحُ مِنْهَا الشَّرَرُ
وَشَارِبٌ قَدْ هَمَّ أَوْ نَمَّ عَلَيْهِ الشَّعَرُ
ضَعِيفَةٌ أَجْفَانُهُ وَالْقَسَابُ مِنْهُ حَجَرُ
كَأَنَّمَا مَقْلَاتُهُ مَنْ فَعَلَهُ تَغْتَذِرُ
الْخُسْنُ فِيهِ كَامِلٌ وَفِي الْوَرَى مُخْتَصَرٌ (20)

فهو يحكم بأن (ابن برد) « ساواه وزاد وأجاد ما أراد » ثم يحلل النصين مركزا على فني البيان والبديع، فحين يقول (ابن المعتز) « قَدْ هَمَّ أَوْ نَمَّ عَلَيْهِ الشَّعَرُ » يرى (ابن بسام) أنه كاد لا يخرج عن لفظ العامة في الأداء إزاء قول (ابن برد) : « قَدْ هَمَّ فِيهِ الْأَسْ أَنْ يَنْبُتَا ».

كما تناول الناحية البديعية التي وضحت في شعر (ابن برد) إذ جانس بين (الشارب والشارب)، وأجاد في باب الإشارة العذبة والعبارة الحلوة مع الإيجاز في قوله: « وامتزج بماء الذهب المنبتا » أي لون الخمرة الذهبي ولون الماء الفضي الرقراق في الكأس.

كانت وسائله الفنية هنا هي (الإشارة، الجناس، جودة التعبير الشعري البعيد عن الابتذال والتصوير الشائع المتداول على الألسن).

ثالثا : ميادين الموازنات

تحقق حضور الموازنات بتوجهاته المتعددة في ميادين توزعت شواهدا في ثنايا الكتب والمؤلفات فكانت في حدود (الفن والمذهب والقريحة والبناء والصورة والأسلوب ثم الإيقاع).

1- فن :

لقد عقدت مفاضلات بين فني الشعر والنثر نذكر ممن فضل الشعر مثلا وأوضح أسباب تفضيله (عبد الكريم النهشلي ت 1014/405) إذ يقول :

«الشعر أبلغ البيانين، وأطول اللسانين، وأدب العرب المأثور، وديوان علمها المشهور»⁽²¹⁾ ، « به ترتاح القلوب وتجذل النفوس، وتصغي الأسماع وتشخذ الأذهان وتحفظ الآثار وتقيد الأخبار». ⁽²²⁾

ولقد كانت منزلة الشاعر عند العرب أفضل من منزلة الخطيب⁽²³⁾ ، ويتابعه تلميذه (ابن رشيق القيرواني ت 7063/456 هـ) فيعقد بابا طويلا في هذا الموضوع يجمل رأيه فيه بقوله « إن الشعر الجيد أفضل وخير من النثر الجيد »⁽²⁴⁾ « ويدلي بحجج كثيرة يرد فيها على من ينتصر للنثر ويؤيد رأيه بما ورد عن النبي (صلعم) في قوله « إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكما »، فقد قرن البيان بالسحر لفصاحته (صلعم)، وجعل منه حكما » لأن السحر يخلل للإنسان ما لم يكن، للطافته وحيلة

(21) اختيار من كتاب الممتع، عبد الكريم النهشلي، 24، تحقيق د. منجي الكعبي ط . تونس 1977.

(22) م. ن ص 11.

(23) م. ن ص 229.

(24) العمدة 19/1.

صاحبه، وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل، والباطل بصورة الحق « لركة معناه، ولطف موقعه وموسيقاه. كما أنه يؤيد فن الشعر بما ورد عن الإمام علي «الشعر ميزان القول» ويستشهد من ثم بأشعار وردت عن آل الرسول والخلفاء والقضاة والفقهاء ليصل أخير إلى أن الشعر «أبلغ اللسانين عند العلماء بلا مدافعة».

أما أبو إسحاق الحصري (1061/453) فقد فضل الشعر أيضا لخلوده وتأثيره في النفوس فهو يقول «بني الشعر لقوم ببيوتا شريفة وهدم لآخرين أبنية منيفة» (25).
وأما (الكلاعي محمد بن عبد الغفورت، 1155/550هـ) فقد عقد فصلا في كتابه (إحكام صنعة الكلام) عنوانه «في الترجيح بين المنظوم والمنثور».

وقد أثر النثر من وجهة دينية أخلاقية (26). مقدما العلل والأسباب ومنها: إن الشعر قلما يجيده إلا مكتسب به مع أسباب أخرى أشرنا إليها في معرض الحديث عن الاتجاه الديني.

على أن الجمع بين الفنين كان معيارا نقديا في الحكم بالاقتدار لدى المبدع .
يترجم (ابن بسام) لابن شهيد (1034/426) فيقول: «والعجب منه انه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه في بديهته ورويته، فيقود الكلام كما يري (27)»
ولابن زيدون فيقول: إنه صاحب منثور ومنظوم (28)، وللجزيري بأنه أحد شعراء الأندلس الذين لهم نوعا البلاغة في المنثور والمنظوم (29)».

(25) زهر الآداب وثمره الألباب، أبو إسحاق الحصري: 46/2، 838. تحقيق علي البجاوي . ط . القاهرة 1953 .

(26) إحكام صنعة الكلام ص 44 .

(27) الذخيرة 192/1 .

(28) م. ن : 336/1/1 .

(29) م. ن . 46/1/4 .

2 - المذهب : أقيمت موازنات بين مذهبي الطبع والصنعة، وكان ميل أهل الأندلس إلى مذهب الطبع على الأعم، ففي كتاب (العمدة) نجد بابا في (المطبوع والمصنوع) قسّم فيه (ابن رشيق) الشعر إلى مطبوع ومصنوع ومتكلف، وحبّذ ما جاء من الصنعة نحو البيت أو البيتين في القصيدة، وبها يستدل على جودة الشعر، فأما إذا كثّر فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وإيثار الكلفة.

وقد وازن بين المذهبين في القيمة الفنية فكان مع الطبع مع الاهتمام بالصنعة وهو ما ذهب إليه (أبو إسحاق الحصري) أي التوسط بين الحالين والمنزلة بين المنزلتين⁽³⁰⁾، ويوازن (ابن شرف القيرواني) ت 460/1067 في مقامة له بين أبي تمام والبحري. فالأول متكلف مع إصابته معني بالطباق والتجنيس في اعتدال حيناً، وإفراط معيب حيناً آخر. أما البحري فله طبع لا تكلف، وكثيره لا يمل⁽³¹⁾.

ويؤيد (ابن بسام) رأي (ابن شرف) هذا بتعليق طريف فيقول «لوسمع أبو تمام صفته هذه لاتخذها قبلة، فما ألم من أدب وإن أوجع، وما سب من صدق وإن أقذع⁽³²⁾». أما العلامة (ابن خلدون) ت 1405/808 فيشترط في فنّ الموشح أن يكون على مذهب الطبع «ما الموشح بموشح حتى يكون عارياً من التكلف».

وهو حين يوازن بين نهج شعراء البيئة المشرقية والبيئة المغربية في هذا الفن يقول «وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات»⁽³³⁾.

وفي الموازنة بين مذهب الأوائل والمحدثين نجد (ابن حزم) ت 1070/463 يفاخر بشاعرية الشاعر (أبي الأجرى الكلابي) لأنه يسير على مذهب الأوائل فهو يقول : «ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرى جعونة بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريراً

(30) زهر الآداب : 838/2 .

(31) الذخيرة : 207/2/4 .

(32) م . ن .

(33) النّج 14/7 .

أو الفرزدق لكونه في عصرهما، ولو أنصف لا ستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين» (34) .

3- القريحة : من الشعراء من يعرف باقتداره على النظم بديهة وارتجالاً، ومنهم من يعجز عن ذلك أو يقصر. ولقد عُدَّت البديهة ركناً من أركان عمود الشعر العربي جاء ترتيبها الركن الخامس من وساطة الجرجاني (ت 1001/392) (35) . كذلك كانت مقياساً للقريحة الشعرية في الأندلس، يؤكد ابن شهيد أن بديهة الشاعر دليل قدرته وبالأخص في حضرة المجالس إذ لا توجد مهلة للتفكير (36).

عقد ابن (رشيق) باباً في هذا الموضوع وأجرى موازنة بين أبي نواس ومسلم بن الوليد، فحكم بالغلبة للأول لقدرته على النظم بديهة (37) .

أما (الشقندي) فقد باهى شعراء المغرب بشاعرية (ابن وهبون) في بديهة بين يدي المعتمد وإصابته الغرض حين استحسن المعتمد قول المتنبي :

إِذَا ظَفِرَتْ مِنْكَ الْمِطْيُ بِنَظَرَةٍ أَثَابَ بِهَا مُعْيِي الْمِطْيُ وَرَازِمُهُ
فَارْتَجَلَ قَائِلًا :

لَيْسَ جَادَ شَعْرُ ابْنِ الْحُسَيْنِ فَإِنَّمَا تَجِيدُ الْعَطَايَا وَاللُّهَا تَفْتَحُ اللَّهُهَا
تَنَبَّأَ عَجْبًا بِالْقَرِيضِ وَلَوْ دَرَى بِأَنَّكَ تَرَوِي شِعْرَهُ لَنَأَلَّهَا (38)

ومن شواهدا : تلك المفاضلة التي أقامها (الحاجب المنصور العامري) بين (صاعد البغدادي) و(ابن العريف) في وصف موضع (العامرية)، إذ بدأ (ابن العريف) منشداً ثم

(34) م.ن: 177/3.

(35) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي عبد العزيز الجرجاني : 34 تحقيق أبو الفضل إبراهيم الجاوي . الطبعة الثانية .

(36) الذخيرة 245/1/1 .

(37) العمدة 91/1 .

(38) النَّفْح 194/3 .

أعقبه (صاعد) مرتجلا، فقال المنصور مستحسنا هذا الارتجال ومؤثرا إياه بقوله :
«مالك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله، فكيف تكون رَوِيَّتُهُ ؟ » (39) .

4- البناء : ونعني به هنا المفاضلة بين المطولات والقصار في الشعر .

يعرض (ابن رشيق) الآراء التي تردت في هذا الموضوع وما قيل في مواضع الاستحسان للطول، ومنزلة القطع القصار، ثم يعطي حكما عادلا بقوله :

« ولكن إذا كان صاحب القصائد دون صاحب القطع بدرجة أو نحوها، وكان صاحب القطع لا يقدر على التطويل إن حاوله بَتَّةً سُوِّيَ بينهما، لفضل غير المجهود على المجهود فإنَّ لا تشك أنَّ المطول إن شاء جرَّد من قصيدته قطعة أبيات جيدة، ولا يقدر الآخر أن يمدَّ من أبياته التي هي قطعة قصيدة » (40) .

ويذكر أن (أبا تمام) كان مقصرا في القطع (41) ، في حين أجاد المتنبي لأنه كان أجمع الناس لكثير من المعاني في قليل من اللفظ، وهذا ما رآه قبله شيخه النهشلي إذ وسمه بأنه أحسن الناس مقاطع (42) .

وفي كتب التراجم إشارات إلى من برزَّ غيره في نظم المقطع كالشاعر (أحمد بن حنون) الذي كان « متقدما في المقطعات » (43) .

ومن شواهد المقابلات هنا أنَّ الشاعر (أبا المطرف بن فتوح) (عصر الطوائف) يضع اقتداره في جانب المطولات إزاء اقتدار الشاعر (ابن برد الأصغر) في المقطعات فهو بعد أن يثني على شاعريته يقول :

(39) م. ن. 4/1 - 583

(40) العمدة 188/1

(41) قراضة الذهب في نقد أشعار العرب، ابن رشيق القيرواني : 106. تحقيق الشاذلي بو يحي . ط . تونس 1982 .

(42) م. ن. ص 100 .

(43) الذخيرة 770/2/1 .

« إلا أن أبا حفص يشف علينا جملة في الملح القصار أضعاف شفوفاً عليه في مطولات الأشعار » (44) .

كما يعقد (ابن بسام) موازنة بين ابن شرف وابن رشيق - وكانت هناك مفاخرة بينهما - فيقول عن ابن رشيق أنه كان «أوسعهما نفساً وأقربهما ملتصاً، ولابن شرف أصالة منزعه وجلالة مقطعه» (45).

5 - الصورة : في كتاب (قراضة الذهب) لابن رشيق القيرواني نجد الناقد يتتبع المعاني الشعرية وألوان البديع ويبين المخترع منها، ثم من أخذ فأحسن أو قصر ابتداء من العصر الجاهلي إلى عصره (القرن 11/5) شاملاً بذلك شعراء المشرق والمغرب . وبذلك أوضح المؤلف تطور الصورة الشعرية وبين أوجه البديع من عصر إلى آخر ومن شاعر إلى شاعر مع التفسير والتحليل وتعليل الجودة أو التقصير بموازنات موضوعية معززة بأراء أهل اللغة والأدب، وموثقة بالرجوع إلى مفهوم اللفظ اللغوي ودلالته في السياق والوزن العروضي ثم الذوق الأدبي (46) .

ننقل من شواهد ما جاء في تتبعه لاستعارة امرئ القيس المبتدعة :

- بمنجرد قيد الأوابد هيكل -

وقول الأسود بن يعفر بعده :

- قيد الأوابد في الرهان جواد -

إذ حكم على الثاني بالنقص، وإن هو أراد الزيادة لأن الرهان لا يقيد وهي استعارة بعيدة هنا كما يرى .

توخى الناقد في موازناته وضوح المبالغة مع الدقة في رسم الصورة، ومن هذا وقوفه بين بيتين في وصف (حلي امرأة) الأول لامرئ القيس في قوله :

(44) م . ن

(45) قراضة الذهب 53، 75، 77، وغيرها .

(46) قراضة الذهب: 31 .

كَأَنَّ عَلَى لَبَاتِهَا جَمْرَ مُصْطَلٍ أَصَابَ غَضًا جَزَلًا وَكُفَّ بِأَجْزَالِ

والثاني للنابعة الذبياني في قوله :

يُضِيءُ الْحَلِي فِي اللَّبَاتِ مِنْهَا كَمَثَلِ الْجَمْرِ بُدِّدَ فِي الظَّلَامِ

فامرؤ القيس كما يرى (ابن رشيق) ذكر الجمر « وشبه به الحلي، ثم ما كفاه إلى أن جعله جمر غضا، وهو أبقي، ثم جعله جزلاً ليكون أشد لوقوده، وأعظم لنوره، وإن كان أراد به الكثرة من قولهم (عطاء جزل) فقد جعله مختاراً لأن من وجد شيئاً كثيراً اختار أفضله، ثم جعله مكفوفاً بالأجزاء حوله وهي (أصول الشجر) زيادة في المبالغة، وقوله (جمر مصطل) لأنه يقلب الجمر فتظهر جمرة وهذا نهاية » . وكان من حكمه هنا أن النابعة أجاد « إلا أنه دون امرئ القيس لما في مبالغته من اللبس » (47)

ومن الوقفات النقدية إزاء النصوص الشعرية في هذا الجانب ما حكم به (ابن بسام) بين صورة الحمامة عند (يحيى بن هذيل ت 389/898) في قوله :

وَمُرْنَةٌ وَالْدَّجْنُ يَنْسُجُ فَوْقَهَا بُرْدَيْنِ مِنْ طَلٍّ وَنَوءٍ بِأَكِ
مَالَتْ عَلَى طَيِّ الْجَنَاحِ وَإِنَّمَا جُعِلَتْ أُرَيْكَتُهَا قُضِيبُ أَرَاكِ
وَتَرْنَمَتْ لِحَنِينَ قَدْ حَلَّتْهُمَا بَغْنَاءِ مُسْمِعَةٍ وَأَنْتَ شَاكِ
فَفَقَدْتُ مِنْ نَفْسِي لِفَرْطِ تَلَهْفِي نَفْسَ الْحَيَاةِ وَقُلْتُ : مَنْ أَبْكَاكِ !

وصورتها عند تلميذه (الرمادي) في قوله :

أَحْمَامَةٌ فَوْقَ الْأَرَاكِ تَتَنَثَّرِي بِحَيَاةِ مَنْ أَبْكَاكِ : مَا أَبْكَاكِ ؟
أَمَّا أَنَا فَبَكَيْتُ مِنْ حُرْقِ الْهَوَى وَفِرَاقِ مَنْ أَهْوَى، أَأَنْتِ كَذَاكِ ؟

إذ يرى (ابن بسام) أن ابن هذيل قد فاق تلميذه في وصفها وذلك في قوله: «... وإن كان كلام الرَّمادي من الحلو المطبوع فلا نسبة بينه وبين كلام ابن هذيل وقد انفرد في صفتها انفرد سهل» (48).

وقد يفضل الشاعر على معاصريه لتفوقه في هذا الجانب، كما فضل (الشريف الطليق مروان بن عبد الرحمن) الذي شبه بـابن المعتز في حسن تشبيهاته. وقد اختار له المقرئ قوله :

وَكأنَّ الْوَرْدَ يَغْلُوهُ النَّدى وَجَنَةُ الْمُخَيَّبِ تَدَى عَرَقَا
ثم علق قائلا : إنه قد فاق أهل عصره بهذا النمط (49).

6 - الأسلوب : ومن شواهد مقياسا في المفاضلة تتبّع (ابن بسام) أسلوب التصغير الذي ورد في قول ابن الحداد (عصر الطوائف) (50).
وإن وَلِهَتْ فِيهِ أَذْيَهُانَ مَعْشَرٍ فَلَا فَضْلَ لِلْأَنْوَارِ فِي مَقْلَةِ الْخُدِ
إذ يقابله بقول المتنبي (51) :

ظَلَلْتُ بَيْنَ أَصْحَابِي أَكْفَكُهُ وَظَلَّ يَسْفَحُ بَيْنَ الْعُذْرِ وَالْعَدْلِ
وقد يفضل الشاعر على غيره من الشعراء لأسلوبه الجزل، كما فضل « أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر الأديب الشاعر (ابن الخطيب)، بقوله : هو شاعر الدنيا... للجزالة المشربة بالحلاوة » (52).

وحين تناول (ابن بسام) شعر المعتمد في الأسر ومنها قوله راثيا ولديه :
فَلَوْ عَدْتُمَا لاختَرْتُمَا الْعَوْدَ فِي الثَّرَى إِذَا أَنْتُمَا أَبْصَرْتُمَانِي فِي الْأَسْرِ

(48) الذخيرة : 347/1/3 .

(49) النّفع : 587/3 .

(50) الذخيرة : 720/2/1 .

(51) م . ن

(52) النّفع : 24/6 .

وضعه إزاء شعر النساء في المراثي متّخذا الأسلوب مقياسا هنا، فهو يرى أنه اقترب من قول الخنساء في صيغة المبنى وليس في صيغة المعنى (53). وذلك في قولها :

فَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَّانْتُ نَفْسِي
أما حين يجمع بعض الشعراء توجّة واحد كأن يكون (فن الهجاء) مثلا فإنّ الأسلوب هو الذي يحدّد سماتهم الأدبية، هذا ما اتخذته (ابن شرف) مقياسا في تقسيم أصحاب النقائض. ففي هجاء الأخطل نظفر بصفاء الفكر وحضور البديع وفي هجاء الفرزدق بطول النفس الشعري، أما في هجاء جرير فنظفر بالبلاغة والجُرأة .

7- الإيقاع : ولدينا من شواهد موازنة أجراها (ابن بسام) بين الشاعرين أبي حفص ابن برد الأصغر وأبي المطرف بن فتوح، إذ فضل الأول لأنه مليح السرد متمكّن القوافي، لا تكاد قافية تخرج عن مركزها، أما قوافي ابن فتوح فهي « قلقة موضوعة في غير مكانها نازلة في غير أوطانها » (54) .

رابعا - خصائصها العامة :

1- الأحكام الوصفية : تفتقد مثل هذه الأحكام إلى التعليل والأناة، فهي أقرب إلى التعميم، ومنها وصف (المقري) شاعرية (ابن خميس التلمساني ت 1308/708) بأنه « طبقة الوقت في الشعر وفحل الأوان في المطول وأقدر الناس على اجتلاب الغريب » (55) . وهو حين يتعرّض لقول ابن مرج الكحل محمد بن إدريس (العصر الموحيدي) :

عَرَّجَ بِمُنْعَرَجِ الْكَثِيبِ الْأَغْفَرِ بَيْنَ الْفُرَاتِ وَبَيْنَ شَطِّ الْكَوْثَرِ
وَلِنَغْتِ بِقَهَا قَهْوَةً ذَهَبِيَّةً مِنْ رَاحَتِي أَخْوَى الْمَرَاشِفِ أَخْوَرِ

(53) الذخيرة : 70/1/2 .

(54) م . ن : 1/2/771 .

(55) النّفح : 360/5 .

يُبدى إعجابه الشديد بهذه الرؤية ولا يجد لها نظيراً سوى رائية، (شمس الدين الكوفي) في قوله :

رَوْحُ الزَّمَانِ هُوَ الرَّيِّعُ فَبَكَّرَ وَأَنْهَضَ إِلَى الدَّائِ غَيْرَ مُنْكَرٍ
هَذَا الرَّيِّعُ يَبِيعُ مِنْ لَدَاتِهِ أَصْنَافَ مَا تَهْوَى، فَأَيْنَ الْمُشْتَرِي ؟

على أنه يؤثر الأول بحكم وصفي مقتضب ليس فيه من تعليل لمواطن الجمال حيث يقول « ولكن قصيدة ابن مرج الكحل أعذب مذاقا » (56) .

2- الأحكام الموضوعية : وقف النهشلي بين الاتجاه القديم والمحدث فلم يجعل الزمن الفاصل مقياساً، بل الجودة الفنية، لأن العبرة ليست في القديم لقدمه ولا في الجديد لحدثه فكان أن نزع عن نفسه (عقدة العصبية والتعصب للقديم) ونظر إلى القضية (من زاوية فنية بحتة⁽⁵⁷⁾)، ليلتقي في هذا مع سابقه ابن قتيبة .

ينقل عنه تلميذه ابن رشيق قوله إنه « قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يستحسن عند أهل غيره » (58) . وهذا ما نجده أيضاً عند (ابن شرف) فهو يقول على لسان (أبي الريان) في (رسائل الانتقاد) :

« وتحفظ من شيئين : أحدهما أن يحملك إجلال القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له، والثاني أن يحملك إصغارك المعاصر المشهود على التهاون بما أنشدت له فإن ذلك جور في الأحكام وظلم مع الحكام حتى تمحص قولها فحينئذ تحكم لها أو عليها » (59) . وهذا هو منهج الحق .

ثم يضع (ابن شرف) جملة خطوات تبعد الناقد عن التعصب في الأحكام، وتقربه من الموضوعية : أولها عدم التسرع إحساناً أو استهجاناً، وأن لا يحكم على الشعر بما

(56) م . ن : 57/5 .

(57) الحركة النقدية على أيام ابن رشيق لبشير خلدون ص 187 ط . الجزائر 1981 .

(58) العمدة : 93/1 .

(59) رسائل الانتقاد لابن شرف، منشورة ضمن رسائل البلغاء لمحمد كرد علي ص 325 .

يحتويه من الفاظ فخمة فقد تكون خالية من المعنى، وعلى العكس قد تكون الألفاظ مستعملة فلا يستصغرها حتى ينظر إلى محتواها « فكم من معنى عجيب في لفظ غريب، والمعاني هي الأرواح والألفاظ هي الأشباح، فإن حسن فذلك الحظ الممدوح، وإن قبح أحدهما فلا يكن الروح (60) » .

وهذا ابن رشيق يلتزم الموضوعية والمنطق في تتبعه للسرقات الشعرية فيقول : «والذي اعتقده وأقول به أنه لم يخف على حاذق بالصنعة أن الصانع إذا صنع شعرا في وزن ما، وقافية ما، كان لمن قلبه من الشعراء شعر في ذلك الوزن، وذلك الروي وأراد المتأخر معنى بعينه، فأخذ في نظمها أن الوزن يحضره والقافية تضطره وسياق الألفاظ يحدده حتى يورد نفس كلام الأول ومعناه حتى كأنه سمعه وقصد سرقة وإن لم يكن سمعه قط (61) » .

وحين يقدّم (امراً القيس) بقوله « وأنا أقصر من جميع الشعراء في أكثر ما أوردته على امرئ القيس لأنه المقدم لا محالة » . فإنه يعلل ذلك مدافعا عن موقفه بما يشهده الطبع « ويشهد الطبع وذوق الفطرة لذلك شهادة مبينة واضحة لا تدركه شبهة إذا قصد الانسان العدل وترك التعصب » . (62)

ومن أدباء لأندلس من صرح بصعوبة الحكم في المفاضلة حين تتوازي القدرات المبدعة، وهذا ما أحسّه (ابن سعيد) حين حاول المفاضلة بين فارس الأدب (ابن بسام وابن خاقان) فكلّماها مجيد « والتفضيل بينهما عسير » إلا أن ابن بسام كما يرى « أكثر تعقيدا، وعلمًا مفيدا وإطنابا في الأخبار وإمتاعا للأسماع والأبصار، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف وكلامه أكثر تعلقا وتعشقا بالأنفس » (63) .

(60) م . ن

(61) قراضة الذهب ص 21 ، 86 .

(62) م . ن .

(63) النّفع : 33/7 .

أما (حازم القرطاجني ت 1285/684) فقد أفرد معلما من كتابه (مناهج البلغاء) تطرق فيه إلى ما يجب أن يعتقد ويقال في المفاضلة بين الشعراء بحسب اختلاف الأزمنة والأحوال المهيأة لقول الشعر والباعثة عليه أشار في هذا المعلم أو الفصل إلى صعوبة البت في الحكم، وأن المفاضلة تكون على سبيل التقريب والترجيح، لأن الشعر يختلف باختلاف أمور عديدة هي :

(الأنماط والطرق والأزمنة) فهناك شاعر يحسن في نمط الجزالة والمتانة، ولا يحسن في نمط اللطافة والرقّة وآخر على العكس . ومنهم من يحسن في النسيب ولا يحسن في الهجاء وهكذا « ولذلك قد يعسر الحكم في المفاضلة بين قوليهما إذا اجتمعا في غرض ووزن وقافية » . واعتمادا على ما تقدم فإنّ من رأيه أن « يضاعف الثناء على الشاعر إذا أحسن وصف ما ليس معتادا عليه، ولا مألوفا في مكانه، ولا هو من طريقه... فإن الشاعر إذا أخذ في مأخذ ليس مما ألفه ولا اعتاده، فساوى في الإحسان فيه من قد ألفه واعتاده، كان قد أربى عليه في الفضل إرباء كثيرا، وإن كان شعرهما متساويا ».

وهو يستشهد بقول الإمام علي : « كلّ شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيّهم أسبق إلى ذلك وكلّهم قد أصاب الذي أراد وأحسن، فإن يكن أحد فضلهم فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر فإنه كان أصحّهم بادرة وأجودهم نادرة ».

ولم يتعصّب (حازم) للتقديم معلّا ذلك بأنه « قد يتأخر أهل زمان عن أهل زمان ثم يكونون أشعر منهم، لكون زمانهم يحوش عليهم من أقناص المعاني بسفوره لهم عن أشياء لم تكن في الزمان الأول، ولتوفر البواعث فيه على القول وتفرغ الناس له ».⁽⁶⁴⁾

(64) مناهج البلغاء وسراج الأدباء ص 377 ، 378 تحقيق محمّد الحبيب ابن الخوجة ط . تونس

ولم يعتد بحكم الشاعر لنفسه أو على معاصريه، حين يضع شعره إزاء شعرهم أو حين يتهم بالانتحال، ولذلك كانت تعقد مجالس الامتحان والاختبار، وقد تكون البديهة هنا مقياساً، أو المعارضة لقصائد مشرقية، لذا لا يؤخذ بحكم ابن شهيد في رسالة (التوابع والزوابع) حين فاضل بين شعره وشعر غيره ثم حكم لنفسه بالجودة والتفوق على مشاهير شعراء العرب، فقد كان هو الخصم والحكم في آن واحد.

كما لم يعتد بحكم ابن شرف في شعره حين ادعى أنه قادر على معارضة أي قصيدة للمتنبى يختارها (المأمون صاحب طيطة) فقد أجاب طلبه بعد الحاج واختار أن يعارض قصيدته التي مطلعها :

لِعَيْنَيْكَ مَا يَلْقَى الْفُؤَادُ وَمَا لَقِيَ وَلِلْخُبِّ مَالَمْ يَنْقُ مَنِّي وَمَا بَقِيَ

وقد اخفق ابن شرف في الامتحان وحين سئل المأمون عن سبب اختيار هذه القصيدة أشار إلى قول المتنبى فيها :

إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُوَ بِإِخْيَةِ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ : الْحِقْ (65)

هكذا اعتنى أدباء الأندلس ونقادهم بمبدأ المفاضلة والموازنة فأوردوا لها شواهد وأمثلة، مذ كانت أحكاماً تأثرية ارتجالية، كما قاموا بإجراء تطبيقات تعتمد هذا المبدأ مما يؤكد فاعليتها ودورها الحيوي في تنشيط حركة النقد العربي في الأندلس. ولا ننسى دور كتاب (الموازنة) للأمدي وكان سيتضح دوره بصورة أجلي أمام الباحثين، لو وصلنا كتاب (ابن رشيق) عنه وهو (تحرير الموازنة) الذي ذكره (ابن خلكان) في مؤلفه (وفيات الأعيان).

خلاصة البحث

(1) من الحوافز التي دعت إلى إقامة المفاضلة بين الأدباء أو الآثار الأدبية في الأندلس التنافس بين البيئة الأندلسية والبيئة الشرقية ومحاولة شعراء الأندلس مجازاة نظرائهم في المشرق والتفوق عليهم .

(2) وقد ظهرت شواهد هذا الحافز بجلاء في باب المعارضات والسرفات الأدبية، كما كان لأصحاب الحكم الدور الأكبر في هذا بمجالسهم، وكان محكّ الجودة هنا : إما معارضة قصائد مشرقية لها مكانتها، أو المطالبة بنظم على البديهة والارتجال لتأتي إثر ذلك الموازنة فالحكم.

(3) وجاءت المطارحات الإخوانية في باب الشعر باعثاً آخر وهو نوع من النشاط التخيلي والرياضة الذهنية يطلب فيها الناقد المفاضلة والترجيح بين قطع شعرية في موضوع واحد قد تكون تذييلاً لأبيات نظمها أحدهم مبتدئاً.

(4) وقد سارت الموازنات في اتجاهات متعددة منها : الاتجاه التأثري الذوقي الذي يخلو من التعليل المنطقي، ومنها الاتجاه الديني الذي يعتمد العرف الاجتماعي والأخلاقي، ويتوخى الهدف النبيل من النظم، ثم الاتجاه اللغوي الذي يتتبع سلامة اللغة ودقة التعبير .

(5) أما الاتجاه الفني فكان الأشمل إذ عني بالصورة ووسائلها المعبرة عنها .

(6) تحقق حضور هذا اللون من النقد الذي فضّل به بعض الشعراء على بعض في ميادين كان منها (الفن والمذهب والقريحة والبناء والصورة والأسلوب فالإيقاع). أما أبرز السمات العامة التي وجدناها فهي الموضوعية وعدم التعصب، إذ دعا النقاد ومنهم (النّهشلي وابن رشيق وابن شرف، إلى اتباع نهج الحق كما أشاروا إلى صعوبة الحكم في المفاضلة حين تتوازي القدرات.

(7) وقد توج (حازم القرطاجني) هذه الدعوة العادلة حين قنّن المفاضلة وقال بأنها تقريبية ترجيحية كما نذكر أيضاً أن النقاد وأهل الأدب لم يعتدوا بحكم الشاعر لنفسه أو لمعاصريه وإنما أرجعوا ذلك إلى المختصين في هذا الجانب وهم النقاد.